الدرسُ السياقيُّ في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني ومَن سبَقَه من الباحثين في إعجاز القرآن

Muhammed al–Mahdi Rıfae*

مُلخَّص:

كان البحث في إعجاز القرآن، الذي عُني به علماءُ المسلمين فبذَلوا فيه أقصى جهودِهم، أكبرَ عامل في إنتاج مفاهيمَ لغويةٍ ودلالية وبلاغية قيّمة، فقد نَجَمَ عن تلمُّسِ مكامن الإعجاز في النص القرآني دَرسٌ سياقيٌّ حَرِيٌّ بالوقوف عنده.

وسأعرض في هذه المقالة ثمرات جهود أولئكم الطائفة من البلاغيين في ميدان السياق، وثمرات بحثهم في قِسمي السياق المقاليّ والحاليّ، في دراسة دلالة النصّ ثم بلاغته. ولما كانت نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم هي ذروة هذه الجهود، فقد جعلتُ البحث على قسمين: الأول: السياق عند باحثي الإعجاز قبل الجرجاني، وقفتُ فيه عند عدد من البلاغيين القدامى، وأبرزُهم الجاحظ وقاضي القضاة عبد الجبار المعتزلي، والثاني: السياق عند الجرجاني الذي أفاد من جهود مَن سبقه من البلاغيين الباحثين في الإعجاز، ومن النحاة واللغويين أيضاً، ليقدِّم –من خلال نظريته الفريدة في الدرس اللغوي– جهداً لافتاً ومتميزاً في درسِ السياق في ميداني علم المعنى وعلم البلاغة، كما سنرى.

كلمات مفتاحية: السياق، سياق المقال، سياق الحال، النَّظم، الموقعية السياقية

Abdulkahir Cürcani and the Siyaq Studies Related to Qur’an İcaz in the Previous Period Before Him

Abstract:

The research in inimitability of the Quran, by which the Muslim scholars made their utmost efforts, was the largest factor in the production of valuable

* Yrd. Doç. Dr., Kırıkkale Üniversitesi İslami İlimler Fakültesi, e-mail: mmrifae@gmail.com

linguistic, semantic, and rhetorical concepts. The search in the inimitability of the Quranic text has produced a contextual lesson that is worthy to stand at.
I will present In this article the outcome of the efforts of those group of linguists who are in the field of context, and the result of their research in both parts of context in studying the significance of the text and then its eloquence.
And since Abdul Qahir Al-Jarjani's theory of cohesion is the culmination of these efforts, I have made the research in two parts: The first was the context at the scholars of inimitability before Al-Jarjani, and I stood at a number of ancient scholars of rhetoric, most notably Al-Jahiz and the judge Alkadi Abdul-Jabbar Al-Mu'tazli; and the second was the context at Al-Jarjani, who benefited from the efforts of his predecessors scholars to present – through his unique theory in the linguistic lesson, a remarkable and distinctive effort in studying the context in both fields of semantics and The art of eloquence, as we shall see.

Key words:
Situational context, Linguistic context, Theory of cohesion.

تمهيد:

يعدّ مبحث السياق أحدَ المحاور الرئيسية في علم الدلالة، إذ غدا نظريةً لغوية متكاملة، تقدِّمُ تصوّراً مستقلاً، وإمكانيةً علمية لتحديد المعنى، ومنهجاً لتحليله. وتُنسَب إلى عالم اللغة البريطاني فيرث (J.R.Firth)[1] نظريةٌ في السياق عُرفت باسم (نظرية السياق في اللغة)، وهي منهج في دراسة المعنى لاقى قبولا في الدراسات اللغوية الحديثة. وعلى الرغم من أن اللغويين والبلاغيين القدامى قد أَدركوا مفهوم السياق وأهميته في بحث الدلالة، لا نجد في بحوثهم بحثا قد أُفرِدَ للسياق مستقلاً، وإن كان باحثو الإعجاز القرآني قدّموا جهوداً عظيمة تقف شامخةً تزاحم بمنكبيها أحدث الدراسات الدلالية الحديثة والمعاصرة.

وإذا أردنا أن نَصوغ خلاصةً لأسس التحليل السياقي للمعنى فستكون كما يلي:

[1]يُعدّ فيرث "مؤسس اللسانيات الحديثة في بريطانيا". انظر تحليل الخطاب: ج . يول وج . براون، ترجمة: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997م، ص 46 .

أولاً: دراسة سياق المقال: ويشمل جانبين:

1- دراسة بنية السياق بحسب قوانين اللغة في إنتاجه.

2- الموقعية السياقية: وهي أثر موقع العنصر اللغوي، كلمةً كان أو تركيباً، في توجيه معناه.

ثانياً: دراسة سياق الحال: وهو جملة العناصر غير اللغوية التي تتعلق بالكلام من خارجه، وتشمل المتكلم والمتلقي وبيئة الكلام وجميع الظروف الملابسة له والعلاقات الزمانية والمكانية التي يجري فيها.

وسوف نرى كيف تناول باحثو الإعجاز القرآني قِسمي السياق الحالي والمقالي اللذينِ ذكرناهما آنفا، في دراسة دلالة النصّ ثم بلاغته.

السياق عند باحثي الإعجاز قبل عبد القاهر:

كان البحث في إعجاز القرآن، الذي عني به علماء المسلمين فبذلوا فيه أقصى جهودهم، أكبرَ عامل في إنتاج مفاهيم لغوية ودلالية قيّمة، فقد نجمَ عن تلمُّس مكامن الإعجاز في النص القرآني درسٌ سياقيٌّ حريٌّ بالوقوف عنده.

ومن أوائل مَن حاولَ تقديم تفسيرٍ لإعجاز القرآن من خلال لغته أبو عثمان الجاحظ (ت255هـ) وألف في ذلك كتابا سقطَ من يد الزمن سماه (نظم القرآن)[2]، وكرّر في مواضع من كتاباته رأيه في أن إعجاز القرآن يكمن في نظمه، من مثل قوله: "في كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدقٌ نظمُه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد"[3].

وممن اهتمَّ بنظم القرآن أبو سليمان حَمْد الخطّابي (ت388هـ) الذي رأى أن القرآن "إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني"، ثم بيّن أن عمود البلاغة هو "وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[4].

---

[2] انظر إشارة إليه في كتاب الحيوان: الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 86/3.
[3] الحيوان: 131/3.
[4] بيان إعجاز القرآن: الخطّابي، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1976م، ص 29.

وفي هذا بيان أهمية الموقعية السياقية في انسجام النظم، وتعني تخير مواقع العناصر في السياق من خلال علاقاتها المتبادلة، وأن البلاغة كلها تقوم على تخير الألفاظ وملاءمتها لسياقها الذي ترِدُ فيه، بحيث لا يمكن استبدال المواقع ولا استبدال الألفاظ بغيرها، وإلا يفسد الكلام أو تسقط البلاغة.

ويكرر القاضي أبو بكر الباقِلّاني (ت403هـ) ما ذكره الخطّابي، ويشير إلى أن إعجاز القرآن يكمن في طريقة تأليف كلماته وترتيبها ضمن سياقها[5]، وهو سرّ تفرده عن التوراة والإنجيل والصحف[6] كما أنه يتفرد عن الكتب سواه "في حسن تأليفه وعجيب نظمه"[7].

أما أهمُّ من تكلم في النظم قبل عبد القاهر فهو القاضي عبد الجبار الأسدآبادي المعتزلي (ت415هـ)، فقد تحدّث عن الفصاحة، وهي عنده حُكم جماليٌّ فنيّ، وترادف كلمة البلاغة، وأشار إلى ارتباط الفصاحة بالسياق، وأنها لا تَظهر في الكلم المفردة، وتوقَّف أمام نقطتين مهمتين في دراسةِ السياقِ تَظهر بهما مَزِيَّةُ الفصاحةِ، وهما الضم والإبدال، يقول: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلم، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع. وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة، أو حركاتها، أو موقعها ؛ ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضَمَّ بعضُها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صِفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها. فعلى الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مَزِيّة الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها"[8].

فقد وضح عبد الجبار هنا دور السياق في توجيه المعنى، بأنه عبارة عن ضَمِّ الكلمات على نحو معين، مع مراعاة أبواب النحو المختلفة، لتتحدد دلالات الكلِم، وأشار إلى أهمية الموقعية السياقية لكل عنصر من

---

[5]انظر إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ص 51، وص44، وص47.

[6]المصدر السابق: ص44.

[7]المصدر السابق: ص 47. وممن أشار إلى فكرة النظم على نحو قريب مما ذكر الخطابي والباقلاني: أبو الحسن الرماني (ت386ه)- في رسالته النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعلام القرآن) تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1976م، انظر ص77 ومابعدها ؛ وأبو سعيد السيرافي (ت368هـ)، في المناظرة بينه وبين متى المنطقي، انظر نص المناظرة في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت وصيدا، ص108/1 وما بعدها.

[8]المغني في أبواب العدل والتوحيد: عبد الجبار الأسدآبادي، تحقيق: أمين الخولي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي – الإدارة العامة للثقافة، مطبعة دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 1960م، ص205/16.

عناصر الجملة، وأن هذه العناصر تقوم بوظيفتها في إظهار الفصاحة من خلال موقعها المحدد من السياق.

ثم يقول عبد الجبار: "إن المعاني وإن كان لا بد منها فلا تظهر فيها المزية.. ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر، والمعنى متفق" والذي تظهر به المزية "ليس إلا **الإبدال** [الاختيار] الذي به تختصّ الكلمات، أو التقدّم والتأخّر الذي يختص الموقع، أو الحركات التي تختص الإعراب فبذلك تقع المباينة"[9] بين الكلام.

فالكلمة لا تعد فصيحة في نفسها، إذ لا بد من ملاحظة أبدالها ونظائرها، وكذلك موقعها في التقديم والتأخير، ولذلك "لا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره... وهذا يبين أن المعتبر في المزية ليس بنية اللفظ وأن المعتبر فيها ما ذكرناه من الوجوه.. ولا فصل فيما ذكرناه بين الحقيقة والمجاز، بل ربما كان المجاز أدخل في الفصاحة"[10]. فمدار الأمر عنده أن فصاحة الكلم في مواقعها ضمن السياق الذي ترد فيه، والسياق هو مجلى الفصاحة الأول.

وتجدرُ الإشارة إلى أنّ بعض الدارسين يرى أن عبد الجبار قد أدرك، على نحو واضح، مفهومَ النظم الذي شرحه عبد القاهر الجرجاني الذي تلقّى أفكارَ عبد الجبار، فكانت خيرَ ملهم له بالقول، حتى ليعد كتابه "تفسيرا مفصلا لما أجمله عبد الجبار وما ذهب إليه من أن العبرة في الفصاحة التي يتفاضل بها الكلام إنما هي في مواقعه وكيفية إيراده وطريقة أدائه وما يجري فيه من نسب وعلاقات نحوية"[11].

السياق عند عبد القاهر الجرجاني:

أفاد الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة (471هـ)، من جهود من سبقه من الباحثين في الإعجاز، ومن النحويين واللغويين في دراسة التراكيب النحوية وخصائصها، والاهتمام بمعاني النحو ووظائفه[12]،

---

[9] السابق: 206/16.
[10] السابق: 206/16.
[11] البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ص 119-120. والجدير بالذكر أن الجرجاني لم يشر أبدا إلى القاضي عبد الجبار أو أنه أفاد منه شيئا في فكرة النظم.
[12] انظر القزويني وشروح التلخيص: أحمد مطلوب، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولى، 1967م، ص 212-213 ؛ والبلاغة تطور وتاريخ: ص 169.

ليصوغَ من ذلك نظريةً فريدة في علوم اللغة، عُرفت بنظرية النظم، وقد خص بعرضها وتفصيلها كتابه (دلائل الإعجاز).

وليس عبد القاهر أولَ من اهتم بالنظم في التراث اللغوي العربي، كما أسلفنا، وليس هو كذلكَ أول من أطلق مصطلح "النظم"، فقد استعمله باحثو الإعجاز قبله، بل وردت عند بعضهم إشاراتٌ تُعلِّل إعجازَ القرآن بنظمه. أما عبد القاهر فلم يكتفِ بالإشارة الموجزة، فقد قام بشرح معنى النظم وتوسع في بيانه، فقاده ذلك إلى بحث جديد في نظام الجملة العربية مختلف عن المعهود في البحوث اللغوية والنحوية، ثم أثبت أن النظم وحده مظهر البراعة ومثار القيمة اللغوية في النص الأدبي، ليؤكد من ثم على أنه أم إعجاز القرآن. وإنه ليحقّ لنا أن نعدّ كتابه مقدمة لفهم الإعجاز وليس حديثا في صميم الإعجاز ذاته.

يُعرِّف عبد القاهر النظم بأنه "تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض"[13]، ويقول عنه أيضا: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها"[14]. فهو لا يقصد بالنظم سوى تأليف الكلام بحسب أبواب النحو المختلفة.

ويتقاربُ مفهوما النظم والسياق، فالنظم هو تأليف الكلم في سياق محدد يقتضيه علم النحو (متوخّى فيه معاني النحو)، فالكلم لا تأخذ مواقعها في السياق عفواً، وإنما من خلال إقامة علاقات معنوية بينها أهمها علاقة الإسناد. كما يستخدم عبد القاهر في شرح نظريته مصطلحات تشير إلى السياق مثل: الضم، والترتيب، والتركيب، والتأليف، والنسق، والسياق، والرصف.. وغيرها.

خلاصة نظرية عبد القاهر السياقية

لقد قاد التفكيرُ في مصدر الإعجاز القرآني عبدَ القاهر الجرجاني إلى التفكير في كيفَ يتكوّن المعنى في الأساس، وكيف تنشأ دلالة الكلام قبل أن نحكم عليه بلاغياً بالسمو والبلاغة أو بالعِيِّ والفَهاهة؟

والذي أفهمُه -في ضوء الدرس السياقي- مِن شرح عبد القاهر لنظريته أن للكَلِمِ وظيفتين أساسيتين لا يمكنها أن تقوم بهما إلا من خلال السياق الذي تجيء فيه، وهما: وظيفة دلالية، ووظيفة جمالية.

الوظيفة الأولى: خَلقُ المعنى

---

[13] دلائل الإعجاز: الجرجاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م، ص15.
[14] السابق: ص70.

أراد عبد القاهر أن يبين أن الكلام المفيد لا يقوم على أجزاء مبعثرة لا رابط بينها سوى التوالي الصوتي في النطق. وليؤكد هذا ويُوَضِّحَه لنا راحَ يُفرِّقُ بين "حروف منظومة" "وكَلِمٍ منظومة"، فنظم الحروف "هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتفٍ في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه. فلو أن واضع اللغة كان قد قال:(ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق، ولذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء... وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لكلٍ حيث وُضع، علةٌ تقتضي كونه هناك "[15].

فترتيبُ الكَلِم وتأليفُها إذن قائم على اقتفاء آثارِ المعاني، وما ذلك إلا لأنه "نظمٌ يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض". وهذا يدل على أنّ للسياق الذي جاءت به الكلم، وللترتيب الذي رُتبت عليه، دوراً في تشكيل المعنى. فلو أن تغييرا أصاب ترتيب الكلمات ونَظمَها فإنه بلا ريب ستختل أدوارها في بناء المعنى الذي كانت تقوم به، والسبب هو أن الترتيب "نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض".

ولقد أكد عبد القاهر هذا المعنى مرارا، يقول: "ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها[16]". والنظم "لا يصح أن يُراد به اللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما"[17].

وإذا كان نظم الكلم لا يتم إلا بترتيب معين، وليس كيفما جاء واتفق، فما هو النظام الذي يحكم هذا الترتيب ويخضع له ؟ إنه "تَوَخّي معاني النحو" وهو النظام الذي به تعلق الكلم بعضها ببعض ويجعل بعضها بسبب من بعض. ولذلك ما انفك عبد القاهر بين الحين والحين يؤكد في النظم على ضرورة توخي معاني النحو ويجعله شرطا لصحته، يقول: "لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم"[18]، "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو،.."، ويقول: "اعلم أني لست أقول: إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلا، ولكني أقول: إنه لا يتعلق بها مجردة

[15] السابق: ص 50-51.
[16] السابق: ص51.
[17] السابق: ص254.
[18] السابق: ص 240.

من معاني النحو، ومنطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخيها فيها"[19]. ويفهم من كلامه هنا نفي دور الألفاظ من حيث هي أشكال وأصوات مفردة، وأنها بتأليفها وصياغتها على سياق معين متوخى فيه معاني النحو تغدو كلاما مفيدا يحمل معنى ما. وأدّى السياقُ هنا وظيفةً دلاليةً قبل أن يكون له وظيفة جمالية بلاغية.

وفي مقدمة كتابه (أسرار البلاغة) يبسط عبد القاهر هذه الفكرة ويشرحها، يقول: "والألفاظ لا تفيد حتى تؤلَّفَ ضربا خاصا من التأليف، ويُعمدَ بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر، فعددت كلماته عدا كيف جاء واتفق، وأبطلت نَضْدَه ونظامه الذي عليه بني وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص **أبان المراد** نحو أن تقول في (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)[20]: منزل قفا ذكرى من نبك حبيب [أي لم تُراعِ معاني النحو] أخرجته من كمال البيان إلى مَحالّ الهذيان،.. وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي له كانت هذه الكلم، بيت شعر أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة. وهذا الحكم –أعني الاختصاص في الترتيب– يقع في الألفاظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس"[21].

ويذهب تمام حسان إلى أن المقصود بالتعليق عند عبد القاهر "إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة ما يسمى بالقرائن اللفظية والمعنوية والحالية"[22]، وأن للتعليق أهمية تجعل منه "الفكرة المركزية في النحو العربي" لأنه "يحدد بواسطة القرائن معاني الأبواب في السياق، ويفسر العلاقات بينها على صورة أوفى وأفضل وأكثر نفعا في التحليل اللغوي لهذه المعاني الوظيفية النحوية"[23].

إن دور السياق في خلق المعنى واضح في عبارات الجرجاني ومصطلحاته كقوله: الضم على طريقة مخصوصة، وأن تؤلف ضربا خاصا من التأليف، والتركيب، والترتيب، وإفراغ المعنى في النضد، والنسق،

[19] السابق: ص 263-264.
[20] هذا هو الشطر الأول من مطلع مُعَلَّقة امرئ القيس.
[21] أسرار البلاغة في علم البيان: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1998م، ص10-11.
[22] اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1979م، ص 188
[23] اللغة العربية معناها ومبناها: ص 189.

وغيرها. وإذا كانت فاعلية السياق عند القاضي عبد الجبار في إظهار فصاحة الكلم وأن لا فصاحة لها خارج السياق، فإن الجديد هنا عند عبد القاهر هو دور السياق وفاعليته في بناء المعنى.

الوظيفة الثانية: خَلق البلاغة

يؤكد عبد القاهر أن القرآن معجز بفصاحته. والفصاحةُ عنده -كما عند كثيرين من البلاغيين القدامى- مرادفةٌ للبلاغة. بيد أنّ سبيل الفصاحة لا يكون إلا في التركيب، ومن خلال السياق الذي هو مجلى الفصاحة والبراعة. ولذلك نجد الجرجاني ينفي أن يكون للكلِمِ المفردة، خارجَ السياق، دورٌ جمالي، إذ لا يحكم عليها بالفصاحة أو عدمها، يقول: "ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب"[24]. وإنّ الفصاحة "لا تظهر في أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة"[25]. فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة بمقدار نجاحها ضمن السياق الذي سُبكت فيه، في صنع الجمال وإنتاج الفن.

ومما يشهد بذلك أنك ترى اللفظة "تكون في غاية الفصاحة في موضع وتراها بعينها فيما لا يُحصى من المواضع ليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير، لأن المزية التي من أجلها نصف اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح، مزيةٌ تحدث من بعد أن لا تكون، وتظهر في الكلم بعد أن يدخلها النظم"[26]. ولذلك لم يكن التحدّي "بالكلم المفردة"[27]، ولا بمعاني الكلم المفردة التي هي لها بِوَضعِ اللغة[28]، ولا يجوز أن يكون في "ترتيب الحركات والسكنات"، ولكن الذي أعجزَ العربَ، كما يقرر عبد القاهر: "مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم في مبادئ آياته ومقاطعها، ومجاري ألفاظه ومواقعها.. وبَهَرَهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمةً يَنبو مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يُرى أن غيرَها أصلحُ هناك .. بل وجدوا اتّساقا بَهَر العقول، وأَعجَزَ الجمهورَ نظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حكَّ بيافوخه السماء، موضعَ طَمع"[29].

---

24 دلائل الإعجاز: ص64.
25 السابق: ص254.
26 السابق: ص258-259.
27 السابق: ص 249.
28 السابق: ص 250.
29 السابق: ص 44.

ويربط عبد القاهر الجمالَ الفني والإبداع بالمتكلم/المبدِع، فالفصاحة "عبارة عن مزية هي بالمتكلم دون واضع اللغة"[30]، وبما أن المتكلم لا يستطيع "أن يصنع بالألفاظ شيئا ليس هو لها في اللغة، وكنا قد اجتمعنا على أن الفصاحة فيما نحن فيه عبارة عن مزية هي بالمتكلم البتة، وجب أن نعلَمَ قَطعا وضرورة أنهم، وإن كانوا قد جعلوا الفصاحة في ظاهر الاستعمال من صفة اللفظ، فإنهم لم يجعلوها وصفاً له في نفسه، ومن حيث هو صدى صوت ونطق لسان، ولكنهم جعلوها عبارة عن مزية أفادها المتكلم"[31]. ولا يكون الترتيب الذي صاغه المبدع/صاحب النَّصّ من حيث نطقَ الألفاظَ وسمعتَها مِن فِيه، ولكن من حيث صَنعَ في معانيها ما صنع، وتَوَخَّى فيها ما توخى.

فالسموُّ الفني والإبداعي قائم على اختيار المتكلم/المبدع صاحب النص لكلماته، وسبكِها ورصفِ بعضِها إلى بعض ضمن السياق، وما يحصل لها في مواقعها في سياقها الذي ظهرت به من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة. فالسياق هو مجلى البلاغة الأول، وهو وحده مظهر البراعة ومثار القيمة اللغوية في النص الأدبي، فمن خلاله تقوم الكَلِمُ بتشكيل المعنى وصناعة البلاغة.

سياق الحال:

لا بدّ أولاً أن نفرق في أهمية سياق الحال عند البلاغيين بين مجالين:

– مجال الدلالة: وتكون أهمية سياق الحال هنا هي في إسهامه في الكشف عن المعنى، حيث يشارك المقامُ المقالَ في توجيه المعنى وتحديد الدلالة الدقيقة للكلام.

– مجال البلاغة: وأهمية سياق الحال هنا في الكشف عن جانب مهم من جوانب البلاغة في النص، وهو المناسبة بين المقام والمقال، المعبر عنه بالمقولة الشهيرة: (لكل مقام مقال)، إذ إن ارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول يكون بمطابقته لمقتضى الحال.

ويمكن التفريق بين المجالين بأن المقام في المجال الأول يسهم في توجيه معناه، وفي المجال الثاني يُسهم في مدى حُسنِه وتأثيره وإحراز منفعته.

ويُشير الجرجاني في مواضع كثيرة من كتابيهِ الدلائل والأسرار إلى دور سياق الحال في تحديد الدلالة، وترجيح معنى على معنى. فقد يُحكَم على الكلام بأنّ فيه حذفاً أو يُعدَل في تفسيره به إلى المجاز عن

[30] السابق: ص 259.
[31] السابق: ص 259.

الحقيقة، أو يعدُّ تشبيهاً أو استعارةً، إذا دلّ عليه سياقُ الحال. فإذا قلتَ: (رأيتُ أسداً) "صَلَحَ هذا الكلام لأن تريد به أنك رأيتَ واحداً من جنس السَّبُعِ المعلوم، وجاز أن تريد أنك رأيتَ شجاعاً باسلاً شديد الجُرأة، وإنما يَفْصِلُ لك أحدَ الغَرَضين من الآخر شاهدُ الحال، وما يتَّصل به من الكلام من قبل وبعد"[32] أي سياق الحال وسياق المقال، فهما الفيصل في تحديد المعنى الدقيق للكلام.

وكما تفيد المعرفة بأحوال المتلقين في ميدان الدلالة، فإن لها في ميدان البلاغة فائدة أخرى، فإنها تقفنا على مدى مراعاة النص لأحوال المتلقين، فتستبين منزلته بين درجات البلاغة. وأشار أغلب البلاغيين إلى أن ارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول يكون بمطابقته لمقتضى الحال. وعرَّف بعضهم البلاغة بأنها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"[33]، وبما أن البلاغة في جوهرها نوعٌ من الجمال في الكلام فإن سوء ملاءمته للمقام سينال من جماله ويذهب بحسنه. فمراعاة سياق الحال ركن من أركان البلاغة.

وقد أسهب الجاحظ في الحديث عن أهمية مناسبة المقال للمقام، فالمعنى عنده ليس يَشرُف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما "مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال"[34].

فالتفاضل في الكلام مرتبط بمناسبته للمقام ومدى مراعاة أحوال المتلقين، ولذلك نجد الجاحظ يوصي المتكلم –إن أراد أن يكون بليغاً– بأن "يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[35]، فهو يقرر أهمية العلاقة بين المقام والمقال من أجل الوصول إلى الغرض الحقيقي الذي يقوم على أساسه التواصل، وما يرافق هذا التواصل من ملابسات الظروف الاجتماعية والثقافية.

ويرى الجاحظ أن سخيف الألفاظ مُشاكِلٌ لسخيف المعاني، ولكنه قد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أَمتعَ بأكثر من إمتاع الجزل الفخم ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعنى[36]. فهذا تأكيد آخر

32 أسرار البلاغة: ص189.

33 الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الرابعة، 1998م، ص13/1.

34 البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق: على أبو ملحم، منشورات دار ومكتبة الهلال، الطبعة الثانية، 1992م، ص163/1.

35 السابق: 138/1-139.

36 السابق: 145/1.

على أن مدار الشرف وحيازة الفضل ليس بشرف الألفاظ ولا كرم المعاني وحدَها مع إغفال مقامِها الذي وردت فيه.

وكذلك الشأن في الإيجاز والإطناب، فهما أسلوبان من أساليب التعبير مرتبطان بسياق الحال، وبه يحكم أيهما أبلغ من الآخر. وينقل الجاحظ عن ابن المقفَّع بأن "الإيجاز هو البلاغة. فأما الخطب بين السِّماطين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خَطَل، والإطالة في غير إملال ... فقيل له: فإن ملَّ المستمع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيتَ كلَّ مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتَكَ من رضا الحاسد والعدو.."[37]. فليست البلاغة إذن محصورة في الإيجاز ولا مقصورة في الإطناب، وإنما السبيل في إعطاء كل مقام حقه وما يجب له منهما. وقد أشار إلى مثل هذا، القاضي عبدُ الجبار في حديث له عن إعجاز القرآن، وأوضح أن "لا معتبَرَ لِقِصَرِ الكلام وطوله"[38] في الحكم عليه بالبلاغة.

وللجاحظ ملاحظة مهمة حول مراعاة القرآن الكريم لأحوال المخاطبين، وهي أن القرآن يعمد إلى الإيجاز والاقتضاب حين يتجه بخطابه إلى العرب الفصحاء، ويطيل ويطنب حين يخاطب اليهود لنقص فصاحتهم، يقول:"وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز.. ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام"[39]. والكتاب العزيز بجملته في الذروة من مراعاة مقتضى الحال ولا ريب.

بل إن في مجيئه على البلاغة والإعجاز في نظمه وبيانه، مراعاةً لسياق حال المتلقين الذين نزل بين ظَهْرانيهم من العرب، لما هو معروف من تنافس العرب في ميدان البيان، فقد نزل عليهم باللغة الحبيبة إلى نفوسهم، وبالأسلوب الخلاب والنظم المعجز الآخذ بقلوبهم. وكان العرب مأخوذين بكل فصيح بليغ من القول، يعبدون البيانَ قبل الأوثان، متنافسين في حفظ أجود المنظوم والمنثور. وكانت لهم عناية بالألفاظ وبالجمال الصوتي. "ولما كانت الألفاظ عنوان معانيها وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأبلغ لها في الدلالة على

[37] السابق: 114/1. والسماطان: الصفّان، أي حين يخطب بين صفَّينِ من الناس متخاصمين لإصلاح ما بينهم. والخطَل: الكلام الفاسد.
[38] المغني في أبواب العدل والتوحيد: ص16/200-201.
[39] الحيوان: 93/1 -94.

القصد"[40]. ولقد جاء القرآن بهذا الأسلوب الرائع الخلاب، ليبدأ خطابه، قبل الناس كافة، بأمّةٍ كانت موهبتها متوفرةً على التفوق والإجادة في هذا المجال، فأعجزَ أساطينَ فصحائها، وأخرسَ ألسنة فحول البيان من أهل اللسان.

خاتمة في نتائج البحث

- يكشف هذا البحث عن جانب دلالي مهم اشتمل عليه علم البلاغة العربية، إذ البحثُ في إعجاز القرآن بحثٌ في بلاغته بالدرجة الأولى. كما يُبين البحث أن دراسة السياق عند هذه الطائفة من البلاغيين أفضت إلى نتائج عظيمة ومهمة في ميداني الدلالة والبلاغة معاً

- إن التفكير في الإعجاز قاد أولئكم البلاغيين إلى نظرية مهمة في علم المعنى تتناول درس السياق من شِقّيه: المقالي والحالي. ويمكن إجمال جوانب هذا الدرس السياقي فيما يلي:

1- أثر السياق في تكوُّن معنى النص، ونشوء دلالته، من خلال ما تعطيه معاني النحو والعلائق بين عناصر التركيب بعضها ببعض

2- أثر الموقعية السياقية في ترجيح دلالة على أخرى لأيّ عنصر لغويٍّ كلمةً كان أو جملةً، أو تركيب استعارة أو تشبيه أو حذف، وتوجيه معنى العنصر بحسب موقعه السياقي.

3- أثر السياق اللغوي في الحكم على بلاغة النص وجماله، ومدى سموّه وعلوّ كَعبِه في الأثر الجمالي الذي يُحدثه، والدور البلاغي الذي يؤديه.

4- أثر المعرفة بقرائن سياق الحال والظروف المحيطة في توجيه معاني النصوص، وإسهامها في التحديد الدقيق للدلالة.

5- أثر المعرفة بسياق الحال في الحكم على بلاغة النص، إذ مقياسُ جمالِ نصٍّ ما يكون، في كثير من الأحيان، لا من بنية النص نفسه بل من خارجه، وذلك من خلال مدى مراعاة النص لمقتضى الحال، ومناسبته لأحوال المخاطَبين والظروف المحيطة بِصُدور النص.

[40] الخصائص: ابن جِنّي، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، الطبعة الثانية، ص215/1-216 .

– إن هذا الدرس السياقي الذي ورد ضمن دراسة إعجاز القرآن، وجاء شاملاً فروع السياق جامعاً لأطرافه المختلفة، الدلالية منها والبلاغية، لهو جدير بالإعجاب والثناء، ويُسجِّلُ لهم سَبْقاً في ميداني الدلالة والبلاغة، إذ يعدّ ذلك تطوراً في الدراسات اللغوية الغربية الحديثة.

المراجع

الباقلّاني، أبو بكر: *إعجاز القرآن*، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة.

براون، ج. و ج. يول: *تحليل الخطاب*، ترجمة: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997م.

التوحيدي، أبو حيّان: *الإمتاع والمؤانسة*، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت وصيدا.

الجاحظ: *البيان والتبيين*، تحقيق: على أبو ملحم، منشورات دار ومكتبة الهلال، الطبعة الثانية، 1992.

الجاحظ: *الحيوان*، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

الجرجاني، عبد القاهر: *أسرار البلاغة في علم البيان*، تحقيق: محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1998م.

الجُرجاني، عبد القاهر: *دلائل الإعجاز*، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1994.

ابن جِنّي: *الخصائص*، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى بيروت، الطبعة الثانية.

حسان، تمّام: *اللغة العربية معناها ومبناها*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1979.

الخَطّابي: *بيان إعجاز القرآن*، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1976.

الرُّمّاني، علي بن عيسى: *رسالة النكت في إعجاز القرآن*، (ضمن ثلاث رسائل في إعلام القرآن) تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1976.

ضَيف، شَوقي: *البلاغة تطور وتاريخ*، دار المعارف، القاهرة.

عبد الجبار الأسدآبادي: *المغني في أبواب العدل والتوحيد*، تحقيق: أمين الخولي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي – الإدارة العامة للثقافة، مطبعة دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 1960.

القزويني، الخطيب: *الإيضاح في علوم البلاغة*، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الرابعة، 1998.

مطلوب، أحمد: *القزويني وشروح التلخيص*، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولى، 1967.